José Tito Rojo,
Los primeros jardines de la Alhambra (1238-1314): Una hipótesis paisajística, Discurso pronunciado por Electo Ilmo. Sr. D. José Tito Rojo en el acto de su recepción académica el 30 de noviembre de 2023 y contestación del Ilmo. Sr. D. Antonio Almagro Gorbea

Grenade, Real Academia de Bellas Artes de Nuestra Señora de las Angustias de Granada, 2023, 100 p.,
ISBN: 978-84-09-56249-7

Keywords: gardens, Alhambra, Al-Andalus

Mots-clés : jardins, Alhambra, al-Andalus

الكلمات المفتاحية: حدائق، قصر الحمراء، الأندلس

يُعتبر خوسيه تيتو روخو واحدًا من أبرز وأشهر المتخصصين في مجال الحدائق الإيبيرية بشكل خاص والحدائق الإسلامية بشكل عام، فدراساته حول حدائق غرناطة، مثل دراساته المفصلة عن كارمن دي لا ڤيكتوريا وكارمن دي لوس مارتيريس في نفس المدينة، بالإضافة إلى دراسته المشتركة حول الحدائق الأندلسية الإسلامية، فضلًا عن أعماله حول البساتين المعروفة بألبركون ديل مورو وقصر شنيل، كانت حاسمة في فهمنا للعلاقة بين العمارة والمناظر الطبيعية (landscape)، وبين البنية التحتية المائية والحدائق، وكذلك العلاقة بين الماضي والحاضر في مدينة غرناطة. وبشكل عام، تساعد أعماله على إعادة تعريف مفهوم الحديقة من خلال اتباع منهجيات متكاملة ومنظور يعتمد على دراسة المشهد الطبيعي (landscape approaches)، والتي، إلى جانب علم الآثار والدراسات المعمارية والزراعية، تعزز فهمنا للبيئة المبنية في الماضي.

الدراسة قيد المراجعة هنا بعنوان «حدائق الحمراء الأولى (١٢٣٨–١٣١٤): فرضية حول المشهد الطبيعي»، وهي واحدة من أحدث أعماله، وأعتقد أنها تستحق التقدير لجرأة فرضياتها وحداثة منهجيتها. إنها في الأصل نص الخطاب الذي ألقاه تيتو روخو كجزء من حفل استقباله في الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة لسيدة الأحزان في غرناطة عام ٢٠٢٣. ويُعد استقباله في هذه المؤسسة العريقة نقطة تحول في دراسات الحدائق والمناظر الطبيعية، حيث إنه عكس أهمية هذا المجال في الإجابة على التساؤلات المتعلقة بالماضي. ويكفي أن نذكر بأن المستعرب الشهير إميليو غارسيا غوميز سبق أن أعلن أن دراسة الحدائق لا تنتمي إلى البحث العلمي، بينما أكد المرمم الشهير لقصر الحمراء، ليوبولدو توريس بالباس، أن الطبيعة الزائلة للحدائق تجعل من المستحيل استعادة مراحلها التاريخية السابقة. المفارقة أن عمل تيتو روخو، الذي يعتمد في بعض جوانبه على الحفريات التي أجراها بالباس نفسه، يفند هذه الآراء من خلال إعادة كتابة التاريخ المبكر للحمراء وحدائقها.

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت مدينة أو قلعة الحمراء، هناك نقص واضح في الاهتمام بالفترة التأسيسية والمراحل الأولى لحضور بني نصر في القلعة. ويعود سبب هذا الفراغ في المعرفة، في المقام الأول، إلى العوامل التاريخية والمنهجية. في بداية بحثه، يشير تيتو روخو إلى اتجاهين منهجيين أديا إلى تأثير سلبي على فهمنا للحمراء: القراءة المبالغ فيها للمصادر التاريخية، والاعتماد غير النقدي على الروايات الشفوية غير الموثقة. ويتجلى الأخير، على سبيل المثال، في النظرية الشائعة التي تفيد بأن محمد الأول، مؤسس الدولة النصرية وأطول سلاطينها حكمًا (١٢٣٨–١٢٧٣)، لم يكن له قصر فعلي في قلعة الحمراء، وأنه عاش في برج التكريم (Torre del Homenaje)، في القصبة الملحقة بالحمراء. وقد تم دحض هذه الفكرة بسهولة من خلال مراجعة سريعة للمصادر الأولية، التي تؤكد أن محمد الأول قام ببناء «دار» فاخرة تليق بمكانته وسلطانه داخل القلعة.

يُسلط عمل تيتو روخو الضوء على الفترة التأسيسية للحمراء، وهي الفترة التي قام فيها محمد الأول بجلب المياه من نهر حدرو، كما هو موثق في مقطع مقتبس كثيرًا للمؤرخ ابن عذاري. كان لا بد أن تكون الحمراء في زمن محمد الأول مخططة بشكل منظم، ومحاطة بالأسوار والأبراج، ومحدده بالخندقين الذين نعرفهما اليوم في جانبيها الشرقي والغربي. كما كان من المفترض أن تضم مسجدًا، ومكاتب إدارية، والأهم من ذلك، مجموعة قصرية حيث يمكنه استقبال السفراء، وعقد المجالس، وإظهار أبهة الدولة. ولكن السؤال الأهم: أين يقع ذلك القصر؟

يفترض تيتو روخو أن القصر الذي بناه محمد الأول كان يقع في وسط القلعة، في المنطقة التي تحتلها اليوم ما يُعرف بـ «قصور» البرطل المرتفع (El Partal Alto) والبرطل المنخفض (El Partal Bajo) ومحيطهما. من خلال توظيف منهجية تعتمد على تحليل المشهد الطبيعي والمنطق، بالإضافة إلى الحفريات التي أجريت في هذه المنطقة من قبل مديري الحمراء، موديستو ثيندويا وليوبولدو توريس بالباس، إلى جانب الأدلة المصورة المبكرة، يلخص تيتو روخو عملية الاستيطان الأولى للحمراء وبناء «مشهد القوة» (landscape of power) في الحمراء في بضع خطوات: تهيئة الأرض من خلال إنشاء مدرجات (terraces) مدعمة بجدران استنادية؛ اختيار المدرج الأوسط لبناء القصر – وهو ما يُعرف اليوم باسم قصر البرطل المرتفع، وكان يُطلق عليه في الأصل اسم «الدار الكبرى» وفق المصادر العربية، وغالبًا ما يُنسب خطأً إلى يوسف الثالث، الذي ربما جدد القصر لاحقًا –؛ ترسيم حدود المجموعة القصرية – الحد الشرقي يشغله طريق داخلي، الحد الغربي غير معروف ولكنه قد يمتد إلى القصبة في الغرب، والحد الجنوبي غير مؤكد، لكنه قد يكون الطريق المعروف

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

بالملكي (Calle Real) أو قناة المياه الرئيسة في القلعة والمعروفة بالسلطان –؛ وأخيراً تخطيط البنية الداخلية للمجموعة القصرية عبر فتح طرق داخلية ومسارات تنقل.

إحدى القضايا الإشكالية الأخرى تتعلق بالتاريخ الغامض للحمراء في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والذي شهد تقسيمَ القلعة إلى مساحات متعددة ذات واقع حضري معقد. هذه «التجمعات الحضرية الصغيرة»، التي اقترنت بالتغييرات الريفية–الحضرية التي فرضها الملاك الخواص لمختلف أجزاء الحمراء، شوهت الرؤية الكاملة لمنطقة البرطل. ونتيجة لذلك، بدأ المؤرخون مثلا في التمييز بين «قصور» البرطل المرتفع والبرطل المنخفض. ويُثبت روخو بشكل مقنع أن مجمع البرطل المنخفض لا ينبغي اعتباره «قصرًا»، بل مجموعة من البنايات المتعلقة بالحدائق والبساتين التي تم تصميمها أثناء عملية تشكيل المشهد الطبيعي التي بدأها محمد الأول وربما واصلها خلفاؤه المباشرون، محمد الثاني (١٢٧٣– ١٣٠٢) ومحمد الثالث (١٣٠٢– ١٣٠٩). وتتألف هذه المجموعة من جوسق به قبة ملاصقة للجدار الشمالي للقلعة، وصهريج ماء كبير أمامه من ناحية الجنوب، وحدائق وبساتين محيطة به، وجوسق آخر على مدرج مرتفع في الجنوب. ونظرًا إلى الطابع الاحتفالي والترفيهي – وربما أيضا إلى الشعائري البارز لهذه المساحات، والتي يصعب اعتبارها مناطق سكنية –، ينبغي بالفعل اعتبارها جزءًا من الحدائق الملكية. ويذكرنا أنطونيو ألماغرو غوربيا، في رده على خطاب تيتو روخو، أن مثل هذه المناطق المخصصة للحدائق كانت موجودة في مدينة الزهراء، والقاهرة، وفاس الجديد. كذلك، كانت مثل هذه المساحات جزءًا من القلعة البيزنطية والعثمانية في طوب كابي، وكان وجودها، في حد ذاته، تجسيدًا لسلطة الحكم الملكي؛ إذ إن نقل التربة الخصبة من فحص المدينة أو أوديتها، وتوفير المياه التي تحتاج إليها من خلال شبكة قنوات معقدة، والصيانة المستمرة لكل من شبكات المياه والحدائق، والتعديلات التي خضعت لها جميعها كانت تعكس قوة وعظمة الأسر الحاكمة. علاوة على ذلك، لم تكن هذه الحدائق مجرد أماكن للترفيه، فكانت توفر أيضًا الغذاء للنخب الحاكمة في حالات الحصار العسكري، بالإضافة إلى كونها فضاءات مهيأة للتوسعات العمرانية المستقبلية.

وباختصار، لا يُعد بحث تيتو روخو إعادة كتابة الفترة التأسيسية للحمراء النصرية فحسب، بل يشكل أيضًا دعوة للباحثين والمتخصصين إلى إعادة النظر في التسلسل الزمني للمساحات المختلفة داخل القلعة وخارجها. وبعد إعادة التقييم التي قام بها، يجب على مؤرخي الفن والعمارة مراجعة الأسس التاريخية التي استند إليها تأريخ المباني النصرية. إذا قبلنا بأن منطقة البرطل صُمّمت ونُسّقت على يد محمد الأول، وأن بناياتها ربما شُيّدت على يد نفس السلطان، فقد يساعد ذلك البحث المستقبلي في إيجاد طرق جديدة لتأريخ جواسق حدائق البرطل – وقد حان الوقت للكفّ عن تسميتها بـ «البرطل المنخفض» (El Partal Bajo) –، وكذلك المنشآت النصرية الأخرى المحيطة بها. هل أُقيمت هذه البنايات بالفعل خلال المرحلة الأولى من حكم محمد الأول؟ في ضوء هذه الفرضية الجديدة، هناك حاجة إلى مراجعة الدراسات التاريخية والفنية التي أجراها، على سبيل المثال، أنطونيو فرناندیث پویرتاس وباسیلیو پابون مالدونادو حول هذه المنطقة.

أقترح عمل مشروع جماعي مستقبلي موجه، في مرحلة أولى، نحو إنشاء قائمة بالبنايات التي تم تأريخها بشكل موثق من خلال المصادر التاريخية أو النقوش. وفي مرحلة ثانية، يمكن مقارنة الزخارف المستخدمة في هذه المساحات مع العمارة الخاصة بالمباني: هل تعودان إلى نفس الفترة أم أن هناك احتمالًا لوجود مرحلة إعادة تزيين لاحقة؟ أما المرحلة الثالثة، فتتمثل في استخلاص العناصر المعمارية والزخرفية التي يمكن نسبتها بثقة إلى عهد معين أو إلى عقود أو قرون محددة. ومن هنا، يمكن لهذا الفريق أن ينطلق في عملية إعادة تأريخ للمباني النصرية داخل الحمراء وخارجها، مثل دار المنجرة الكبرى المعروفة حالياً باسم El Cuarto Real de Santo Domingo.

لقد ازدحمت مكتبة الدراسات المتعلقة بالحدائق والمناظر الطبيعية بالعديد من الأبحاث التي حاولت التنظير لـ «الحدائق الإسلامية»، جنبًا إلى جنب مع دراسات أخرى تدافع عن الطابع الفردوسي لهذه الحدائق. ومع ذلك، نادرًا ما حاولت الدراسات إعادة تعريف مفهوم الحدائق والمساحات الخضراء في العالم الإسلامي، والأقل من ذلك هو اعتماد منهجيات تحليل المناظر الطبيعية لدراسة المساحات التي وُصِفَت بأنها «قتلت» بحثا. إلى جانب الحدائق العامة، وحدائق الأفنية في المساجد والقصور، والبساتين التي تحتوي على حدائق للزينة وأخرى زراعية، كان العالم الإسلامي يضم مناطق ترفيهية من الحدائق والبساتين، ورغم كونها داخل القلاع، فقد كانت مفتوحة في الهواء الطلق.

يمثل بحث تيتو روخو مساهمة هامة في الدراسات الخاصة بحدائق البحر المتوسط في العصور الوسطى، والتي اعتبرت تقليديًا أن الحديقة المغلقة (hortus conclusus) هي النموذج الأساسي لحدائق تلك الفترة. ويبرهن على أن المساحات الخضراء المفتوحة والمنفصلة، والتي تضم جواسق توفر إطلالات بانورامية على الوديان والمناطق الحضرية والجبال والعناصر الطبيعية الأخرى، كانت جزءًا أساسيًا من الثقافة الإسلامية منذ مدينة الزهراء في القرن العاشر، مرورًا بحدائق ابن الأحمر في القرن الثالث عشر في الحمراء.

وليد عاكف
جامعة هارفارد، كامبريدج، ماساتشوستس

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net